

الأدب في سيرة أعلامه :

ملتن ...

[الفيتارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

- ٣٠ -

البطل الضرب :

وكان يفتاب الشاعر الحزن على فقد بصره الحين بعد الحين
وذلك كلما أحس الوحدة قاسية موحشة بعد فقد زوجته الثانية
والظلمة عميطة به وبنياته لا يملكن لأبيه ولا لأنفسهن عوناً
ولا نفعا ، ولقد كان يتمن وهن زغب الحواصل وأبوهن
ضرب ، لا يرى في وجوههن رضاهن إذا رضين ولا ألهن إذا
ألن ، من أكبر يواغت حزنه وغمه ...

ولكنه كان يعتصم بالحكمة أن يهن أو يتخاذل عزمه
أو يترايل وقاره ؛ وكان يلوذ بالشعر فيجد فيه ما ينشد من عزاء
لروحه ، بل لقد كان والظلام والنم يعتوران به يجد فيه من الأنس
ما يكاد يحس معه مثلاً يحس الناس في الحياة لنفوسهم من
بهجة ؛ وبحسب المرء أن يذكر هذا ، وأن يذكر كيف بلغ مع
ذلك بقصيدته الكبرى مبلغاً تنقطع دونه الآمال ، وقد توات
عليه ألوان غير هذه من الشدائد ، ليرى مقدار أصالته في الشعر
ومبلغ تعلقه بفنه ومدى إخلاصه له ؛ والحن أنه إن كان ثمة رجل
له مما حاق به أكبر المذرة عن القمود عما نهض له فلن يكون
هذا الرجل إلا ملتن ، ومن اتق من الحياة مثلاً اتق ؛ ولكنه
لم يقعد بل لم ترده الحن إلا صبراً وإقداماً . فدل بذلك على أنه
من الأفذاذ القلائل الذين تتضائل الدنيا في نظرم وتتعاقر تلقاء
ما يسعون إلى بلوغه من نبيل الغايات ...

وضايقه يومئذ من ابني أخته أن سارا على نهج غير نهجه
في الأدب والفن وسلكا سبيلاً غير سبيله ، بل لقد كان ذلك يكرهه
أحياناً إذ يحس النشل حتى في هذا ، فلقد قام على تربيتهما بنفسه
وتوجيههما الوجهة التي يريد ، فلما كبرا كرها التزمت والمزيد

من الجد والاحتشام ، وربما بالبيوريتانية الجافة التي تبدو لها
كالشجرة جردت من كل ثمرة وكل زينة وإن بقيت قوية الجذع
والأغصان فما ترى العين من معاني الشجرة فيها إلا القوة والصرامة
وأقبل الفتیان يستمتعان بالحياة كما يستمتع النخلة في المدينة
وكان الناس قد سئموا البيوريتانية في زرعها الاجتماعية وضاقوا
بالحياة خالية من المرح والزينة . فتهاوت الشباب على الموسيقى
والشعر ، ورأت الحكومة ألا مناص من مماشاة هذه النزعة
مخافة أن يؤدي التشدد في صدها إلى ازدياد الدعوة إلى إعادة
الملكية ؛ فسمحت بنشر بعض الكتب الخفيفة التي تطلب
للتسلية واللهو أكثر مما تطلب للنعمة ؛ وكانت المسارح جميعاً
مغلقة تحول الشرطة دون فتحها ؛ ولكن واحداً استجد
فسمحت الحكومة بأن يستمتع فيه الناس بالموسيقى ، وبعض
المسرحيات من النوع الفنائى ، وأحسن أهل لندن بشيء من
المرح والأنس يدب في الحياة التي ألقت عليها فيؤد البيوريتانية
كثيراً من الوحشة والجهامة .

وتعطف الفتیان في مسامرة النزعة الجديدة ، وعلى الأخص
أصفرها جون فيليبس فقام على نشر كتاب احتوى على غير قليل
من الاستهانة والمجون . ثم نشر كتاباً آخر جعل عنوانه :
« سخرة من المتأففين » وهاجم فيه البيوريتانية هجوماً عنيفاً ،
وأما أكبر الأخوين فكان لا يزال يطلب عليه التحفظ والتحرج
وإن شايع الاتجاه الجديد كما تجلى في كتابه : « أسرار الحب
والفصاحة » .

وفي أوائل شهر سبتمبر سنة ١٦٥٨ قضى كرمول نحبه ،
وذهب بذهابه الرجل الذي طالما عقد ملتن عليه الرجاء ؛ وحزن
الشاعر للنبا العظيم وازدادت من المستقبل مخاوفه ، وإن كانت
حماسته لكرمول قد مسها الفتور قبل مماته بسبب سياسته الدينية
ولسنا نعرف على وجه اليقين هل كانت ثمة صلة شخصية
بين الرجلين ؟ ولقد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن مثل هذه
الصلة كانت قائمة بينهما ، ولكن لا يسوقون حادثة واحدة تؤيد
زعمهم هذا وقصاصهم الاستنتاج والظن ، فقد كان كرمول يحب
النابيين ويحسن حزامهم ويقرهم إليه فما يفوته أن يصطلي رجلاً
مثل ملتن وضعت الحكومة في مثل ذلك المنصب الخطير ،
وما ينسى له نضاله عن الجمهورية وبلاده في رد كيد الكاثوليك ،

عمل وإنه لطيب بذلك نفساً لأنه يستطيع أن ينصرف اليوم إلى بنية شبابه ويمكف على تحقيق ذلك الحلم الذى انشغل عنه دهرًا طويلاً ...

ومن عجيب أمره أن همه يومئذ لم يك منصرفاً إلى الشعر وحده على شدة ولوعه به وتحرقه إليه ؛ بل لقد كتب باللاتينية رسالة طويلة في العقائد المسيحية ضمنها آراءه في الله وفي غرضه من خلق الناس وفي أصل الوجود وفي الحياة والموت وفي خطيئة آدم وخروجه من الجنة ، وفي علاقة المرأة بالرجل ومنزلتها في المجتمع وفي السياسة والدولة والحرية ، وفي مسائل القضاء والقدر وما يتصل بها ...

ولكن كتابه هذا لم يثر عليه إلا سنة ١٨٦٣ أى بعد قرابة قرن ونصف من وفاته ، وقد عثر عليه مصادفة ضمن إضبارة من الورق كانت تحتوى كذلك على صور مراسلاته اللاتينية الرسمية التى كتبها وهو فى منصبه ؛ وليس يعرف على وجه اليقين متى بدأ كتابة هذه الرسالة ، وأكبر ظن المؤرخين أنه كتبها ما بين سنتى ١٦٥٥ ، ١٦٦٠ ، وكذلك لم يعرف غرضه من كتابتها ؛ ويرى بعض النقاد من تقسيمها وتبويبها أنه قصد بها أن تكون رسالة يدرسها الناشئون ، ويقرؤها غيرهم من المثقفين ويرى آخرون أنه ضمنها خلاصة فلسفته لتكون مرشداً وهادياً لمن يقرأ قصيدته الكبرى فأكثر آرائه فى القصيدة يتشى مع ما ذكر فى رسالته اللاتينية ، وكلا الملمين الفنى منهما وغير الفنى يلتقى من الضوء على الآخر ما يكشف عن دقائقه ويوضح كثيراً من أسرارها ، ولعل هذا هو غرضه الحقيقى من كتابة هذه الرسالة ، ولذلك نحيل إلى أن نرجى الكلام عنها حتى يأتى ذلك عند دراسة فلسفته فى قصيدته الكبرى ، ونكتفى الآن بأن نذكر أن ملتن اعتمد على الكتاب المقدس فيما أورد من آراء كما ذكر ذلك ، ولكنه لم يتتبع بأقوال المؤولين والمفسرين قبله ، بل اعتمد على تأويله هو وتفسيره . فأتى بكثير من الآراء التى لا يتفق معه أحد فيها ؛ ويمينا ذكر هذا لأنه يدل على فاحية من نواحي شخصيته وهى حرية فكره ورفقته فى التخلص من كل قيد ، ولقد تجلت هذه النزعة فيه من قبل أيام كان يجادل القساوسة وأيام كان يدافع عن الطلاق ...

وما كان يظن أحد من حوله أنه سوف ينصرف عنها أقبل

وبحاول هؤلاء أن يجدوا فى مقطوعته التى استدح بها كرمول دليلاً على صلة شخصية بينهما ...

ولكن فريفاً آخر من رجال الأدب ينكر هذه الصلة ، ويقولون إن رضاء كرمول عن ملتن لا يستلزم أن تكون له به معرفة شخصية ، وما دامت تعوزنا الحوادث المعينة التى تثبت ذلك فلا قيمة للظن والاستنتاج والاعتماد على قرائن وأهية ، فما كل من ينظم مقطوعة أو قصيدة لملك أو حاكم يكون ذا صلة بذلك الملك أو ذلك الحاكم ، وأنا أميل إلى هذا الرأى وأزيد عليه أن ملتن رجل ذو كبرياء ، وقد عرف عنه أنه كان قليل الصلة برجال الحكومة آنفة ومنغفاً أن يقال به حاجة إلى أحد ، كما أنه كان شديد الاعتداد بنفسه والحرص على كرامته ، فلم يك لذلك حديث بمجالس ولا كان ممن يحسنون فن التقرب والتودد الذى هو فى حقيقة الأمر ضرب من الملق وإن تعارف أهله على تسميته بالكياسة أو اللباقة ، ولذلك لم يتقرب ملتن ولم يتودد وإن كان فى دفاعه عن الحكومة بكتبه شديد التحمس فياض الثناء ؛ ولم يك تحمسه وثناؤه إلا شعوراً وطنياً من ناحية وأصراً يقتضيه الدفاع والمغالبة من ناحية أخرى . وكان ملتن شاعراً ولم يك للشعراء عند رجال الحكومة من البيوريتانز ما ينبغي أن يكون لهم من رفيع المنزلة إن لم يضمهم الشعر فى موضع الكراهية لهم والاستخفاف بأمرهم ، هذا إلى أنه كانت للرجل آراء فى الطلاق وفى الدين عده الناس فيها مسرفاً أو به جريئة ، وكان يحس ملتن كثيراً من الفتور والبرود عند من تعظمه الظروف إلى لقائهم من كبار رجال الدولة ، وهو رجل فى آنفه ودم وفى نفسه أشد من الكبير على كل ذى كبر ، ولذلك تجافى هؤلاء الكبراء ، ومن كان هذا شأنه معهم كانوا خليقين أن يصرفوا بحيلهم نظر كرمول عنه إن اتجه إليه إن لم يعملوا على الكيد له والوقية به ، أما هو فلم يسع من جانبه إلى تقرب أوتودد ؛ قال ملتن يرد على رجل التمس وساطة فى أمر « يؤسفنى أننى غير قادر على أن أفعل ذلك ؛ فان معرفتى ضئيلة بأولئك الذين فى أيديهم القوة تناسب فى ضآلتها حرصى على أن أزم بيتى فى الأكثر ، وإنى لأؤثر أن أزمه » .

وظل ملتن بعد موت كرمول فى منصبه يعينه فيه مساعد ، ولكنه كما قلنا كان فيها يشبه المنزلة فقلما شغله من ناحية منصبه

السعادة ، فإن إفساد الدين على يد السلطة الزمنية يكون باحدى وسيلتين القوة أو المال ، وإفساده بالمال أشد من إفساده بالقوة ، لأن القوة ممثلة في الاضطهاد قد تؤدي إلى ازدياد الاستمساك بالدين ، ومن ثم تمتد جذوره وتسمق فروعه ؛ أما المال فيه تشتري الضمائر وبه يستأجر الضعاف والجهلاء من المرشدين والقائمين على أمر الدين ، ومن هنا يكون التدهور والفساد الحق

ولم يمد ملن بطائل من وراء هاتين الصيحتين ، فقد كان البرلمان في شغل بما هو أخطر من المسائل الدينية ، فقد أخذت تصطرع الأهواء في عهد ريتشارد حامي الجمهورية الثاني ، وتزايدت الدعوة إلى إعادة الملكية ، وقل أنصار الجمهورية في البرلمان ، وعاد إلى البرسبترينز شيء من قوتهم فرغبوا في الثأر من المستقبلين وتفرق الناس على هذه الصورة شيعة وأحزابا ، فلا غلبة إلا لمن يثبت أنه أقوى جنداً أو أكثر نفراً

وكان يدرك ملن أنه كمن يصرخ في وادٍ قفر من أهله فلا سميع ولا محيب ولا صدق أصوته ؛ ولكنه على الرغم من ذلك — كما يقول — مطمئن إلى أنه يفعل ما يجب عليه فعله وأن يفعله في وقته لا يبتغي إلا الخير لدينه ولوطنه

وإن المرء ليتملكه العجب من إصراره على هذا النحو ودأبه على محاربة رجال الدين ، لا يدع فرصة ولا يدركه سأم ؛ فها هو ذا يرسل عليهم سهامه في عهد ريتشارد مؤملاً أن يجد عنده من القبول ما لم يجده عند أبيه ، ويميل بعض من كتبوا حياة ملن إلى رد هذه الصرامة إلى حنقه عليهم وعلى الأخص البرسبترينز لما نال من أذى على أيديهم ولأنهم أعلنوا طرده من الكنيسة ، ويرى غير هؤلاء أن مرد قسوته عليهم إلى عقيدة في نفسه لا يتحول عنها وهي أن تسلط رجال الدين مهما يكن مذهبهم على شؤون الدولة هو سبب كل طغيان وكل خنق للحرية ، ولما كان يكره الاستبداد من أعماق قلبه بقدر ما يحب الحرية فقد انصبت كراهته على هؤلاء الذين يرى فيهم رمز الماد النقي ، والتسلط الأحمق ، وزاده إيذاؤهم إياه يقيناً بأنهم أصل كل شر ، وسبب كل رجعية لأهم خصميه من أجل مبادئه في الزواج والطلاق ، وهو لم يرد بهذه المبادئ إلا الخير للإنسانية جميعاً ، وما ساوره شك في أن ما دعا إليه إنما هو الحق .

الحنيف

(يتبع)

عليه من شمر ومن دراسة ؛ ولكنه ما لبث أن انصرف عنهما سنة ١٦٥٩ وعاد إلى كتيباته ! ففي أوائل تلك السنة قدم للبرلمان رسالة عنوانها : « حول السلطة المدنية في الأمور الدينية لبيان أنه ليس من الشروع لأية قوة على الأرض أن تتبع الإكراه في مسائل الدين » ؛ وأخذ يدافع عن الحرية الدينية ويعلن أشد سخطه على الاضطهاد الديني وإكراه الناس على غير مايمتقدون ، ولم يقتصر سخطه على غير البروتستانت ، بل شمل البروتستانت كذلك ، لأنه يحقت الاضطهاد والقهر أيما كان مصدره ؛ ومعنى ذلك أنه يجب أن يقبل أن تتاح الحرية للكاتوليك ، وإلا فكيف يحل لنفسه ما يحرم على غيره ويدعى مع ذلك أنه طالب حرية ؟ ولكنه يناقض نفسه في هذا الأمر فيحاول أن يفلت من التناقض فيأتي برأى عجيب عن الكاتوليكية ، فهي ليست ديناً ، ولكنها بقية باقية من حكومة روما ، وعلى ذلك فلا تصامح معها في إنجلترا خوفاً على سلامة الدولة ، فاضطهد الكاتوليك لمذهبهم ، وما عوقبوا من قبل الاتحاد أو زبغ ولكن لخيانة ؛ ومهما يقل ملن فلن يستطيع أن ينفي عن نفسه ما يكرهه من غيره من اضطهاد وإكراه ؛ وألم ملن في هذه الرسالة في مطالبة البرلمان بإطالب به كرمول من قبل ، وهو ألا تكون هناك كنيسة للدولة .

ونشر في أغسطس من السنة نفسها كتيباً عنوانه « نظرات في أمثل الطرق لطرد المأجورين من الكنيسة » . وعنده أن أمثل هذه الطرق أن تتخلص الدولة من هؤلاء القساوسة جلة ؛ فإطعام هؤلاء يمكن أن يوصل إلى من يقومون على رعايتهم وهدسهم ؛ وفي استطاعة القساوسة أن يجدوا لأنفسهم عملاً آخر وذلك خير لهم ؛ وفي رأيه أنه ليس ثمة ضرورة لهؤلاء القساوسة ، وأن المال الذي يعطى للكنيسة يمكن إنفاقه في أوجه كثيرة هي خير مما ينفق فيه ، كأن تبنى مدارس وتنشأ مكتبات تلحق بها تيك المدارس ، حيث يتعلم الناس اللغات والفنون بغير أجر تعليمياً شعبياً لا يوقعهم عن مزاوله أي عمل يكسبون منه أقواتهم فتستدير بصائرهم ويرتفع مستواهم الثقافي فتنتشر المدنية في أنحاء الدولة .

وينبغي ألا يذهب رجال الدين إلى الجامعات ، فليتركوا فيها إلا أسوأ الآثار ، فهم كطلاب يكونون في الأكثر ضيق الأفق أغبياء وليسوا أحسن حالا وهم رجال ، وخلاصة القول إنه يجب أن تتخلص المسيحية من هؤلاء المأجورين لتتحقق لها